القرآن الكريم في الاتحاد السوفياتي

الشيخ طه الولي

النسخة المخطوطة من القرآن في مدينة طشقند عاصمة أوزبكستان

يعتقد اخواننا المسلمون في الاتحاد السوفياتي أن المصحف الموجود اليوم في مكتبة الادارة الدينية (الاسلامية) في طشقند هو نفس النسخة الأصلية التي كتبت في أيام الخليفة عثمان بن عفان، وهم يسمونه « المصحف العثماني »، ويشاركهم في هذا الاعتقاد بعض العلماء من خارج الاتحاد السوفياتي. وجدير بالذكر أن ما يقوله المسلمون السوفيات بالنسبة لهذا المصحف ويقوله غيرهم بالنسبة لما يدعونه من حيازتهم لمصحف عثمان كذلك، سببه أن الناس في كل مكان وزمان حريصون على تشرفهم بحيازة هذا الأثر الثمين من تراثهم الاسلامي. ومن خلال هذا الحرص، يتوهمون أن كل مصحف مكتوب بالخط الكوفي على الرق لا بد أن يكون هو النسخة نفسها التي كتبت في أيام عثمان ولو لم تكن في الواقع كذلك. ومن جلة العلماء المسلمين الذين يشاركون المسلمين السوفياتي بنسبة مصحف طشقند إلى عثمان بن عفان العالم الفلسطيني المحقق عبدالله مخلص المولود في « عنتاب » من أعمال **حلب** سنة (١٢٩٦ هـ/١٨٧٨ م)، والمتوفى بفلسطين سنة (١٣٦٧ هـ/١٩٤٧ م)؛ فقد نشر هذاالعالم بمجلة **الكشاف** البيروتية الصادرة بتاريخ (ربيع الأول ١٣٤٨ هـ/ أيلول/سبتمبر سنة ١٩٢٩ م) مقالاً عنوانه « مصحف عثمان » قال فيه:

« أول ما اهتدى الباحثون إلى نسخة القرآن الثمينة العريقة في القدم، كان عام (١٢٨٦ هـ/١٨٦٩ م) في مدينة سمرقند، وقد حفظت هذه النسخة القديمة النفيسة في مكتبة سان بطرسبورغ (لينغراد اليوم) الامبراطورية العامة. وكان أول من أحضرها حاكم تركستان العام الجنرال « كوفمان ». قالوا: وكانت قد قدمت هذه النسخة هدية من آسيا الصغرى إلى « كوجا » التركستاني الشهير الذي ولد عام (٨٠٦ هـ/١٤٠٣ م) قدمها له أحد الباحثين من رجال الدين، ثم نقلت إلى تركستان بفضل واهتمام الفاتح العظيم « تيمورلنك »؛ وهذه

النسخة كبيرة القيمة عظيمة الخطر، لأنها مكتوبة بخط عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين، وقد كتبت كلها بيده.

ومن هنا تتجلّى للقارىء نفاسة هذه النادرة المعدومة المثال، التي جمعت بين جلال القدم وجلال الكاتب...»

وإننا مع تقديرنا لهذا العالم الفلسطيني الجليل، نرى في كلامه ما لا يصح قبوله، لا سيما فيما يتعلق بقوله إن النسخة السمرقندية مكتوبة بخط الخليفة عثمان بن عفان نفسه، وهو قول لم يسبقه إليه أحد من المحققين الذين أرخوا للمصحف المذكور، فلقد أجمع هؤلاء المحققون على أن عثمان كلّف بعض الصحابة بكتابة المصحف وأنه هو شخصياً لم يفعل شيئاً من ذلك.

وأما فيما يتعلق بما أكده عبدالله مخلص عن نسبة هذا المصحف إلى أيام الخلفاء الراشدين قبل نحو (١٤) قرناً، فإنه اعتمد فيه على المستشرق الروسي **شبونين** الذي انكب على دراسته عندما كان عضواً «بجمعية الآثار الامبراطورية الروسية»، ورأى أن هذا المصحف كتب بالعهد الأول من الاسلام كما يستدل من خطه، والرق الذي كتب عليه. في حين، أن المستشرق الروسي **كراتشكوفسكي** (Kratchkovski) (١٨٨٣ - ١٩٥١ م)، لم يكن من رأي زميله ومواطنه شبونين، وأنه نشر مقالاً عن هذا المصحف في العدد الثالث من المجلة، الروسية (ابغرافيا الشرقية) لعام ١٩٤٩ م، حدّد فيه كتابة المصحف المذكور في أوائل القرن الثاني للهجرة (أي من عام ٧٣٢ م - ٨١٤ م).

ولم يكن **كراتشكوفسكي** الشخص الوحيد الذي نفى نسبة المصحف الموجود اليوم في طقشند إلى عثمان بن عفان، فلقد نقل ذلك أيضاً العلامة شهاب الدين **المارجاني القزاني** مؤلف كتاب: «ناظورة الحق في فرضية العشا وإن لم يغب الشفق»، وغيره، فقال هذا العلاّمة في كتابه، **الفوائد المهمة**: «ومن الأكاذيب ما اشتهر بين أهالي سمرقند وبخارى وغيرهما من أن مصحف الإمام هو المصحف الذي في مدينة سمرقند في مدرسة الأحرار، وأنه حمله جده أبو بكر القفال الشاشي من بغداد إلى بلده، وتوارثه أولاده إلى أن وصل إلى الشيخ عبيدالله (أحرار)، فوضعه في مدرسته، فهذا المصحف، وإن كان من الآثار القديمة المتبركة، لكن ليس هو بمصحف الإمام لدلائل تشهد بذلك، ومن هذه الدلائل التي ذكرها **المارجاني**: إن أبا عبيد (القاسم بن سلاّم الهروي - نسبةً إلى هراة) المتوفى سنة (٢٢٤ هـ/٨٣٨ م)، ذكر أن كلمة «لا» وقعت فيه (أي في مصحف عثمان الحقيقي) آخر السطر، وكلمة «حين» في صدر السطر الآخر - يقصد كلمة (**لات حين مناص**) وإني - الكلام للمارجاني - فحصت هذا المصحف، إذ هو بسمرقند، فوجدت الكلمة على خلاف ما ذكره. فإن التاء

ليست بمتصلة، ولا واقعة كلمة «لا» في آخر السطر ولا كلمة «حين» في أوله. وقد حمل هذا المصحف إلى مدية بطرسبورج عند استيلاء الروس على مدينة سمرقند سنة خمس وثمانين ومائتين وألف الهجرية، (١٨٦٨ م)، وتلقوا (أي الروس) هذا الكذب منهم - أي من أهل سمرقند - وكتبوه في الجرائد وأدرج رد ذلك في بعض جرائد القسطنطينية بإلقاء مني» (هذه الجرائد هي: **حقائق الوقائع** عدد ربيع الأول سنة (١٢٨٩ هـ)، عدد صَفَر سنة (١٢٨٩ هـ). جريدة **الحوادث** عدد ذو الحجة سنة (١٢٨٨ هـ). هذا، وإن الشيخ **اسماعيل مخدوم** مؤلف كتاب «تأريخ المصحف العثماني في طشقند»، الذي نقلنا عنه كلام المارجاني، أورد بهذه المناسبة النص الحرفي للرسالة التي أدرجها المارجاني في الجرائد المذكورة ونحن ننقلها هنا بكاملها استكمالاً للفائدة التاريخية، قال المارجاني:

«بعد التحية، لقد كان في داخل سمرقند في مدرسة منسوبة إلى الخواجه عبيدالله الأحرار، مصحف قديم مكتوب على رق حيوان بالخط الكوفي، وما كان فيه من علامات الحروف والإعراب والوقوف والآيات وأسماء السور وغيرها شيء، وفي أواخر الصفحات حمرة على لون الشفق يقولون إنه دم، يزعم أهالي بخارى وسمرقند أن هذا المصحف هو المصحف الإمام الذي كان لعثمان نفسه رضي الله عنه، وقد نقله الروس حين استولوا على سمرقند إلى بطرسبورج وكتبوا مراراً مفتخرين: بأن هذا مصحف المسلمين الأم - وحتى أن علماءهم لا يقدرون قراءته، وهذا المصحف وإن كان من الآثار القديمة ليس بالمصحف الإمام فيما أظن، وقد كنت نظرت فيه وقرأته حين وردت سمرقند سنة (١٢٦٠ هـ/١٨٤٤ م)، وقد كتبت قبل هذا بخمسة عشرة سنة في كتابي «وفيات الأسلاف» في ترجمة ملاّ عبدالرحيم بن عثمان الأوتوز ايماني المتوفى سنة (١٢٥٠ هـ/١٨٣٤ م)، ما جزمت من أمر هذا المصحف. وها أنا بعثت إليكم بالترجمة برمتها، فلو نشرت في الجرائد ومجاميع الفنون لكان أحسن، إذ فيه الجواب الكافي عما تفتخر به الروس. لقد قرأته، أنا والشيخ الأوتوزايماني، وعلمنا أن المصحف ليس بذاك المصحف الإمام، فلو أتيح أن ينشر في وقت ما، تتفضلون، بإرسال عدة نسخ من ذلك إلى هذا الجانب، فإن الروس سألوا سفير أمير بخارى «يحيى خواجه» عن هذا المصحف، وهو أجاب من غير تثبُّت وتريث كما هو عادتهم - أي أهل بخارى - بأنه المصحف الإمام، فكتبوا هذا أيضاً في الجرائد» - انتهت رسالة المارجاني.

وللشيخ المارجاني كتاب، اسمه «وفيات الاسلاف» قال فيه: «حين كتبت ترجمة الشيخ عبد الرحيم بن عثمان الأوتوزايماني المتوفى سنة (١٢٥١ هـ)، قلت في هذا الكتاب إن الشيخ عبد الرحيم المذكور لمّا زار سمرقند رأى هذا المصحف محتاجاً إلى الإصلاح، فأصلح الأوراق والخطوط وكتب الصحايف الساقطة من جديد، وأصلح المواضع المخرومة ولم يألُ جهداً فيما عمل أن يكون كالأصل. وهذا المصحف كان موجوداً في أوائل

العصر التاسع في القاهرة، بعد زمان أبي بكر القفال الشاشي وحتى بعد الشيخ عبيدالله الأحرار بكثير، ذكر هذا ابن الجزري وغيره...».

وفي أواخر هذا القرن، قام الشيخ **موسى الله روستوفدوني** صاحب كتاب «تاريخ القرآن والمصاحف» المطبوع في بطرسبورج سنة (١٣٢٣ هـ/١٩٠٥ م)، بزيارة إلى سمرقند وغيرها من بلاد «ما وراء النهر»، وألف كتاباً عن مشاهداته في هذه الزيارة سماه «السياحة فيما وراء النهر»، ذكر فيه أن المصحف المحفوظ اليوم ـ أي في أيام المؤلف ـ في بطرسبورج الذي يُعتقد أنه مصحف عثمان رضي الله عنه، كان أولاً في هذا المسجد (مسجد الخواجة الاحرار بسمرقند) قال المؤلف: وكنت قد زرت هذا المصحف المبارك أثناء زيارتي بطرسبورج، وعلمت يقيناً أنه ليس هو المصحف الإمام، لأنه كبير الحجم والمصحف الإمام كان، على ما قال العلماء، قدر صفحتي اليدين وطوله زائداً عن ذلك شيئاً. ذكروا ذلك في الكتب، فعلى هذا يكون مصحف عثمان رضي الله عنه أكبر بيسير من مخطوطاتنا العادية، لا على قدر المصحف المحفوظ في مكتبة بطرسبورج أبداً، ثم إن مصحف عثمان رضي الله عنه تغيب بعد شهادته في مكتبة بطرسبورج أبداً، ثم إن مصحف عثمان رضي الله عنه تغيب بعد شهادته عن الوجود، وليس له خبر، إلاّ أن بعضهم قال إنه كان عند ابنه خالد، ولا يعلم أين ذهب بعد ذلك.

وما دمنا قد نقلنا فيما تقدم وجهة نظر المتشككين بصحة نسبة المصحف الموجود اليوم في طشقند الى الخليفة عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين، فإن أمانة البحث العلمي تقتضينا نقل وجهة نظر الذين قالوا بصحة هذه النسبة، أو أنهم على الأقل رجحوها. من هؤلاء، **جعفر الحسني** رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق سابقاً، الذي كتب في مجلة **المجمع العلمي العربي** (المجلد ٣٩ ـ شعبان المعظم ١٣٨٣ هـ/ كانون الثاني/يناير ١٩٦٤ م) تحت عنوان: «مصحف عثمان»، تعليقاً على مقال بنفس العنوان كتبه الدكتور عبدالرحمن الكيالي في نفس المجلة (المجلد ٣٨، جزء ٤)، قال الحسني:

«سمعت بحديث المصحف الذي كان في جامع الخوجة أحرار بسمرقند، ولم يتيسَّر لي رؤيته، وأعتقد أن كاتب المقال اكتفى بنقل رواية أهالي سمرقند دون أن يدعم هذا الزعم بحجة علمية... ويستدل من حجم هذا المصحف ووزنه أنه لم يكن للتداول، إذ لا يتسع له حجر القارىء ويصعب حمله ونقله، وأرجِّح أنه كان كغيره من المصاحف الكبيرة من الأمهات التي يعتمدها نساخ المصاحف...».

وكان الدكتور **عبدالرحمن الكيالي**، قد تحدَّث في مقاله الذي علّق عليه جعفر الحسني عن المصحف الذي كان في قلعة حمص وتداولته الأيدي إلى أن انتهى به المطاف إلى الآستانة، حيث حُفظ في متحف الأوقاف

الاسلامية والذي نسب هو الآخر إلى الخليفة عثمان بن عفان وعليه آثار دمه عند اغتياله، وأنهى الدكتور الكيالي مقاله بقوله.

« وهل يُعقل أن يكون لسيدنا عثمان مصحفان عليهما آثار شهادته: واحد في سمرقند وواحد في الآستانة؟! ».

أمَّا الشيخ **اسماعيل مخدوم** صاحب كتاب « تاريخ المصحف العثماني في طشقند، وهو من أعيان العلماء المسلمين المعاصرين في الاتحاد السوفياتي، فإنه يجزم بأن هذا الصحف هو نفس المصحف الذي استشهد عثمان بن عفان وهو يقرأ فيه، وذلك حيث قال في ختام كتابه المذكور: يحق لنا أن ندعي ولا نشك أن مصحفنا أحد المصاحف العثمانية، وقد قيل المثبت مقدم على النافي . . . والله سبحانه أعلم؟.

نسخة المصحف العثماني في طشقند وهل هي مصورة عن الأصل أم هي الأصل؟

هذا التساؤل لا بد أنه يراود أذهان الناس في أيامنا، لا سيما أن المصحف العثماني قد تعاورته الايدي عشرات المرات، كما أنه تنقَّل عبر عشرات المدن قبل أن يستقر في طشقند، ويشتهر أمره بين الخاص والعام.

يقول عبدالله **مخلص** في مجلة الكشاف البيروتية التي أشرنا إليها من قبل:

« قامت الثورة في سنة (١٣٣٥ هـ/١٩١٧ م)، فأسرع مسلمو روسية إلى طلب هذه النسخة ـ وكانت في بطرسبورج ـ لأنهم أحق بها من غيرهم، فأجيبوا إلى طلبهم وأرسلت إليهم النسخة بناء على ذلك لينقلوها إلى تركستان . . . ولكن هذا الحلم الجليل لم يتحقق، فقد فقدت هذه النسخة في الطريق ولم يعلم أحد مقرها بعد ذلك ».

ويتابع عبدالله مخلص كلامه، بلهجة المفجوع بعزيز الذي يعزي نفسه ببقاء البديل عن هذا العزيز، فيقول: « . . . ولم يبق للناس إلاَّ عزاء واحد عن هذه الخسارة الجسيمة التي يشعر بها كل من يقدرها حق قدرها ـ ذلك هو التعزي بالنسخة الباقية المأخوذة عنها بوساطة رجال جمعية الآثار في سان بطرسبورج (لينغراد)، في (٢٦ مايو/أيار سنة ١٩٠٤ م/١٣٢٢ هـ). وقد كتب عليها مدير الجمعية إمضاءه لاعتمادها. وعلى الصفحة الأولى من هذه النسخة، العنوان، مكتوباً بالروسية والفرنسية كما يلي:

« القرآن بالخط الكوفي من سمرقند، نُقلت عن النسخة الأصلية التي كتبها الخليفة عثمان ثالث الخلفاء بخط يده (٦٤٤ ـ ٦٦٥ م)، وهي النسخة المحفوظة بمكتبة بطرسبورج الامبراطورية العامة، وقد نقلت هذه النسخة بتصريح من جمعية الآثار في بطرسبورج بوساطة المسيو بيزاريف، وتم ذلك في بطرسبورج سنة (١٩٠٥ م/١٣٢٣ هـ) ».

وهنا لا بد من الملاحظة، بأن التاريخ الذي سجل في هذه الوثيقة ليس دقيقاً، وذلك خلافاً لما عرف عن المستشرقين من الدقة في التحقيق، ذلك أن عثمان بن عفان ولي الخلافة سنة (٢٤ هـ/٦٤٤ م) وقتل سنة (٣٥ هـ/٦٥٦ م)، وكان جمع القرآن في السنة التالية من ولايته أي سنة (٢٥ هـ/٦٤٥ م). ولقد أشرنا من قبل إلى أن عثمان أمر بجمع القرآن ولم يكتبه هو بيده، وأن الذين فعلوا ذلك هم أعضاء اللجنة الرباعية التي ألفها لهذا الغرض وقد ذكرنا أسماء أعضائها من قبل.

ويقول عبدالله مخلص، في التنويه بهذا العمل العلمي الذي مكن المؤرخين من متابعة موضوع المصحف المذكور إلى هذه الأيام:

« ... وقد بذلت العناية الفائقة في طبع هذه النسخة، مع الاحتفاظ بالألوان الأصلية التي امتازت بها النسخة الأولى في فواصل الآيات، فجاءت آية من آيات الابداع والافتنان، وهي تقع في ثلاثماية وثلاث وخمسين صحيفة، حجم كل منها (٩ سنتم في ٦٩ سنتم)، وزنة النسخة الواحدة (١٨ كلغ)، وغلافها يجمع إلى جمال الرونق متانة الصناعة وقد طبع على الغلاف الجملة الآتية: «طبع منها خمسون نسخة فقط، تباع منها خمسة وعشرون فقط وثمن كل واحدة منها مائة جنيه».

وهكذا، فإننا نستنتج من هذه الوقائع أن المصحف الموجود اليوم في طشقند هو النسخة المصورة عن المصحف القديم الذي ضاع ولم يعلم أحد مقره حتى الآن، وفوق كل ذي علم عليم.

الرحلة التاريخية للنسخة الموجودة من مصحف عثمان في طشقند.

لا بد من الاعتراف بأن الحكايات، التي تناقلها الكتاب عن المراحل التي مرت على المصحف العثماني قبل استقراره نهائياً في طشقند هي أقرب الى التقاليد الشعبية منها إلى الحقائق التاريخية، وإن المرء ليجد نفسه في حيرة من أمره إذا أراد اختيار الصحيح منها وإبعاد الزائف، على أن هذا لا يمنعنا من إيراد بعض هذه الحكايات على سبيل الرواية لكي تكتمل دراستنا هذه من جميع جوانبها، وفق المعطيات التي تساعد العلماء الذين يأتون من بعدنا على استخلاص الحقيقة من خلال هذه الفسيفساء من المعلومات «القلقة» والمشوبة بما تَدَاخَلها من العواطف الشخصية لرواتها.

ونبدأ مسيرتنا في رحلة مصحف طشقند مع خطواته الأولى، التي تحدث عنها **ابن قتيبة**، واسمه أبو محمد عبدالله بن مسلم واشتهر بابن قتيبة الدينوري، وإنما سمي الدينوري لأنه كان قاضي دينور توفي سنة (٢٧٦ هـ/٨٨٩ م)، قال هذا المؤرخ في كتابه **عيون الأخبار** (في التاريخ وشؤون الحكم والآداب الاجتماعية): «إن المصحف الإمام الذي قتل عثمان رضي الله عنه وهو في حجره، ورثه عنه ابنه خالد، وعن

خالد أبناؤه، وقد قال لي بعض المشايخ من أهل الشام إن ذلك المصحف الآن في أرض طوس». وعندما راجعت **معجم البلدان** لياقوت الرومي الحموي، وجدته يذكر طوس التي في بلاد العجم، وبعدها يذكر طوس التي هي: من قرى بخارى التي ينتسب إليها عدد من أهل العلم منهم: أبو جعفر رضوان بن عمران الطوسي من أهل بخارى، روى عن أسباط بن اليسع، وأبي عبدالله بن أبي حفص، وروى عنه خلف بن محمد بن اسماعيل الخيّام.

ولا ندري ما إذا كان ابن قتيبة يذكر وجود مصحف عثمان **بطوس** بخارى أو **بطوس** العجم، وأغلب الظن أن المقصود هنا هي طوس بخارى، وهو ما أمكننا استنتاجه من الوقائع التالية:

جاء في كتاب رحلة **ابن بطوطة** المسماة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار» قول صاحب الرحلة تحت عنوان «مدينة البصرة»: وأهل البصرة لهم مكارم أخلاق وإيناس للغريب وقيام بحقه، فلا يستوحش فيها بينهم غريب، وهم يصلّون الجمعة في مسجد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، الذي ذكرته، ثم يسد فلا يأتونه إلاّ في الجمعة. وهذا المسجد من أحسن المساجد، وصحنه متناهي الانفساح مفروش في الحصباء الحمراء التي يؤتى بها من وادي السباع، وفيه المصحف الكريم الذي كان عثمان رضي الله عنه يقرأ فيه لمّا قُتل، وأثَرُ تغيير الدم في الورقة التي فيها قوله تعالى: فسيكفيكهُمُ الله وهو السميع العليم ـ نقول، وكانت وفاة ابن بطوطة في سنة (٧٧٧ هـ/١٣٧٥ م).

ويقول محمد **أمين الخانجي** في كتابه «منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان» ـ وهو ذيل لمعجم البلدان الذي ألفه ياقوت الحموي الرومي ـ في معرض كلامه عن هذا المصحف، الذي رآه ابن بطوطة في مسجد علي بن أبي طالب بالبصرة:

«... والمصحف المذكور سُلب بعد ذلك من البصرة، ونُقل إلى سمرقند ومنها إلى الروسيا وهو الآن في مكتبة بطرسبرج الملكية». ومحمد أمين الخانجي كان حياً في الثلاثينات من القرن الحالي الميلادي؛ وإذا كان ما يقوله هذا المؤلف مستنداً إلى مصادر وثيقة، فهذا يعني أن القول بوصول المصحف إلى الروسيا ليس بمستبعد.

وجاء في كلام المؤرخين، ومنهم **النويري** في كتابه «نهاية الأدب»، إن السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري، من سلاطين المماليك المتوفى سنة (٦٧٦ هـ/١٢٧٦ م)، كان على علاقة طيبة مع الملك بركة خان المتوفى سنة (٦٦٥ هـ/١٢٦٦ م) الذي كان أبوه جوجي بن جنكيزخان. وقال ابن تغري بردي في كتابه: «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة». هو ـ أي بركة خان ـ كانت مملكته عظيمة متسعة جداً، وهي بعيدة عن بلادنا. وله عساكر وافرة العدد. وكان بركة هذا، يميل إلى المسلمين ميلاً زائداً، ويعظم أهل

العلم ويقصد الصلحاء ويتبرك بهم، ووقع بينه وبين ابن عمه هولاكو وقاتله بسبب قتله للخليفة المستعصم بالله وغيره من المسلمين ـ وكان بينه وبين الملك الظاهر مودة ويعظم رسله . وكان قد أسلم هو وكثير من جنده، وبنى المساجد وأقيمت الجمعة في بلاده، وكان جواداً عادلا . . . ». ومِمَّا يُذكر أن السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري رسم بتجهيز الهدايا إلى الملك بركة خان، بعد تحرير رسالة قرئت عليه، وكانت الهدايا عبارة عن ختمة (أي مصحف كامل) ذُكر أنها من خط عثمان بن عفان رضي الله عنه . قال النويري: « ذُكر أنها من المصاحف العثمانية بغلاف أطلس أحمر، مزركش ضمن درج آدم مبطّن بعتّابي (نوع من الحرير)، وكرسي لها من العاج والآبنوس، مخرَّم بسقط فضة . . . » إلى آخر ما قالوا . . .

قال الشيخ **محمد مراد بن عبدالله الرمزي البلغاري** ثم المكي (المتوفَّى سنة ١٩٤٠ م، في التركستان الشرقية) في كتابه « تلفيق الأخبار في تاريخ قزان والبلغار »، الذي ذكر فيه أخبار بيبرس وبركة خان: « . . . والمصحف الذي اشتُهر بأنه مصحف سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، وجلبوه من سمرقند إلى بطرسبورج وأودع في كتبخانة الامبراطورية، لا يبعد أن يكون هو هذا المصحف، بأن حمله تيمورلنك من « سراي » إلى « سمرقند » عند حروبه مع توقتامش خان واستيلائه على « سراي »؛ وهذا الاحتمال قريب، فلا وجه لاستبعاد البعض إياه من غير دليل يستند إليه ». قال الشيخ اسماعيل **مخدوم** في كتابه « تاريخ المصحف العثماني في طشقند »: « وقد حمل هذا المصحف إلى مدينة بطرسبورج، عند استيلاء الروس على مدينة سمرقند سنة (١٢٨٥ هـ/١٨٦٨ م). وما دمنا قد ذكرنا أقوال المؤرخين القدماء حول وصول هذا المصحف إلى بلاد الروسيا، وهي كما أشرنا من قبل أقوال مرتبكة اختلطت فيها الأسطورة بالحقيقة، فإننا نختم هذا الاستعراض للرحلة التاريخية، التي قام بها هذا المصحف عبر العباد والبلاد، بالكلمة التي نشرها الدكتور **عبدالرحمن الكيالي** من أعيان مدينة حلب وعلمائها . ونحن ننقلها من مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ٣٨، الجزء ٤) وقد جاء فيها قول الكاتب المذكور:

« . . . قرأت في مجلة « بلاد السوفيات » الصادرة في (٥ نيسان/ابريل ١٩٦٣) مقالاً عنوانه: مخطوط من ١٣٠٠ سنة » . . . استرعى انتباهي، وهو كما يلي:

(لا يخبرنا التاريخ بمعلومات محققة، عن الظرف الذي وجد به في مدينة « سمرقند » هذا المخطوط القديم المعروف باسم « مصحف عثمان »).

تقول الروايات، إن هذا القرآن قد جمعه الخليفة عثمان بن عفان الخليفة العربي الثالث، شخصياً لأكثر من (١٣٠٠) سنة خلت، وعندما قتل عثمان كان المصحف بيده فانتشر الدم عليه؛ وحُمل القرآن إلى سمرقند بعد حملة مظفَّرة قام بها تيمورلنك، جلب منها من جملة ما جلبه هذا المصحف ووضعه في مكتبته . وتقول رواية

أخرى إن المخطوط قد جلبه إلى سمرقند (ولي الله حاج أحرار القسطنطيني) الذي حصل عليه كهدية لقاء شفائه أحد الخلفاء.

ومهما يكن من أمر، فعندما غزت قوات القيصر الروسي تركستان، كان مصحف عثمان موجوداً في سمرقند في مكتبة مسجد هذا الولي. وفي سنة (١٨٦٩ م)، أرسل الجنرال فون كاوفمان هذا المخطوط النادر إلى «بطرسبورغ»؛ أمّا الدواعي لذلك، فيقول الجنرال: «إن قرآن المسلمين هذا، ليست له أية قيمة، لأنه معتبر كوثيقة رسمية تخص أمراء بخاري. ولا يستطيع أحدٌ قراءته. وهو موجود هناك منذ مئات من السنين ولا يصلح لشيء».

وظلَّ المصحف في بطرسبورغ أكثر من نصف قرن، إلى أن كانت الثورة الاشتراكية، فطلب مسلمو روسية من «لينين» أن يعيده إلى مالكيه القدماء، ومع أن «لينين» كان غارقاً في مشاغل الدفاع عن الثورة وإنهاض الاقتصاد الوطني الذي هدمته الحرب، فقد وجد من الوقت متسعاً لدراسة طلب المؤمنين باهتمام، وأعيد المصحف إليهم. وكانت دلالة على احترام «لينين» للمشاعر الدينية لسكان روسية.

وهنا، نتوقف قليلاً عند خبرٍ يتعلّق بمصير هذا المصحف بعد وصوله إلى بطرسبورغ، ساقه صديقنا الدكتور **الشيخ صبحي الصالح** من أهالي طرابلس الشام والأستاذ بالجامعة اللبنانية في بيروت قال في كتابه «مباحث في علوم القرآن»، وهو يتحدث عن المصحف: «ويميل بعض الباحثين إلى أن هذا المصحف أمسى زمناً في حوزة قياصرة الروس في دار الكتب بلينغراد، ثم نقل إلى إنكلترا».

إلاّ أن مؤلّف كتاب «تاريخ المصحف العثماني في طشقند»، وصف ما قاله الدكتور الشيخ صبحي الصالح في كتابه المذكور بأنه «كلام خليط». وفي مقالٍ نشره **توماديبو المعلوف** أرشدياكون البطريركية الانطاكية، في مجلة المجمع العلمي العربي (ج ٤، سنة ١٩٢٤) تحت عنوان «اللغة العربية في المملكة الروسية» قال: «وقد طلب المسلمون نقل المصحف بعد نشوب نار الثورة، فأجابتهم إليه حكومة كيرنسكي وهي الحكومة المؤقتة، فنقل باحتفال لائق إلى مدينة «أوفا» مركز الفتوى الاسلامية في بلاد الشمال.

لينين هو الذي استجاب لطلب مواطنيه المسلمين برد مصحفهم إليهم

في أوائل عهد الثورة الاشتراكية، وفي أيام الحكومة المؤقتة بالذات، تحركت قوة من المسلمين في فيالق (برئيوبراز)، بقصد اخراج مصحف عثمان من مكتبة لينغراد بالعنف، ولكن هذه الحركة أوقفت. وكان أسس، بعد ثورة أكتوبر الاشتراكية في ذلك الحين، الشورى الاسلامية المحلية في بطرسبورج، فكلفت هي بالاهتمام بمصير هذا المصحف، فقررت تقديم طلب رسمي إلى الحكومة الجديدة لاسترداده بالوسائل الشرعية والقانونية، فلما وصل هذ ا الطلب إلى «لينين» بادر فوراً إلى إصدار أمره بإخراج هذا المصحف الثمين من

المكتبة العامة وتأمين إيصاله للمسلمين أصحابه الشرعيين، وفيما يلي النص الحرفي الرسمي الذي تضمنه الكتاب الموجه من قبل لينين إلى أناطولي وسيليويج لوناجارسكي في مجلس الشعب، وذلك بتاريخ (١٩١٧/١٣/٩).

نص هذا الكتاب:

« إلى قوميسيري الشعب في شؤون المعارف أناطولي وسيليويج لوناجارسكي، [١٩١٧/١٣/٩ م بطرسبورج]:

« إنه قُدِّم إلى مكتب قوميسياريات الشعب مكتوب رسمي من الشورى الاسلامية المحلية لمسلمي بطرسبورج، يطلب فيه باسم مسلمي روسيا جميعاً إعادة المصحف العثماني المقدس الذي هو محفوظ في المكتبة العمومية للدولة إلى أيدي المسلمين. إن مجلس الشورى الاسلامية أحال تنفيذ هذا القرار إلى رئيس الشورى عثمان هذايتويج توقمبيتوف رئيس الشورى الحربية لجميع مسلمي روسيا، وإلى كريم محمد يويج سيكيتوف عضو البرلمان الملّي.

ولذا، فإن مجلس قوميساريات الشعب قرّر إعطاء المصحف العثماني المقدّس المحفوظ في المكتبة العمومية، من غير تأخير، إلى اختيار الشورى الاسلامية، وبناء على ذلك يلتمس أن يصدر أمركم المتعلق بذلك ». [رئيس قوميساريات الشعب: و. ا. اوليانوف لينين].

رحلة المصحف الأخيرة من أوفا إلى طشقند

إن أهل أوفا ومساوالاها من بلاد بشكيريا وبلاد التتارستان اعتبروا أن نجاحهم في استخلاص المصحف من عهدة الحكومة المركزية، وإيداعه في إدارتهم الدينية، يخولهم الحق في أن يحتفظوا بهذا الأثر الاسلامي العظيم بصورة دائمة؛ على أن ما كان يدور في أذهانهم كان يدور نقيضه في أذهان السكان المسلمين في مناطق تركستان من بخارى وسمرقند وطشقند وفرغانة، فهؤلاء السكان يعتبرون أنهم هم أهله الوارثون له بحكم الأسبقية التاريخية. واشتد التنافس بين الفريقين على هذا المصحف، حتى كاد الأمر يتحول من ميدان الكلام والمراجعات إلى ساحة العراك والتقاتل، لولا أن لينين تدخل في الوقت المناسب وحسم الأمر لصالح الاوزبكيين، وكان ذلك في سنة (١٩٢٣ م)؛ وفي السنة التالية أي سنة (١٩٢٤ م) ذهب وفد من علماء المسلمين في طشقند، ممثلاً للإدارة الدينية في هذه المدينة، قاصداً إلى أوفا حيث تسلّم أعضاؤه المصحف الشريف، بموجب احتفال مهيب شارك فيه علماء باشكيريا الذين نزلوا عند رغبة لينين في إعادة المصحف إلى وارثيه القانونيين. وفي (٢٨ آب/أغسطس) من السنة المذكورة، حمل علماء طشقند المصحف على رؤوسهم ودخلوا إلى قاعة خاصة، وبقي في

هذه القاعة إلى سنة (١٩٢٦)؛ ففي هذه السنة نُقل إلى متحف الآثار في طشقند، بعد أن أصدرت الحكومة مرسوماً باعتباره من الآثار القومية في البلاد، وما يزال هذا التراث الاسلامي العريق في مكانه بالمتحف المذكور، الذي يحمل رسمياً الاسم التالي: « متحف تاريخ شعوب أوزبكستان لدى أكاديمية العلوم الاوزبكية »، وهذا المتحف قام في جنب سوق الجباب، وهو أول متحف من نوعه في أوزبكستان.

ضياع العديد من أوراق المصحف أثناء نقله وبعده

إن لهفة المسلمين في بلاد الروسيا على اقتناء بعض أجزاء المصحف العثماني لأجل التبرك بها، حملت الكثيرين منهم على استلال بعض أوراقه أو على الأقل، بعض أجزاء من هذه الاوراق؛ وقد كثر مثل هذا العمل عندما كان هذا المصحف موضوعا في الجامع الكبير التابع للجمعية الاسلامية في طشقند، وذلك قبل نقله إلى حيث هو الآن في المتحف الذي أشرنا إليه قبل حين. ومن أصل (٣٥٣) ورقة، لم يسلم من النهب والسرقة والتلف إلاَّ (١٥) ورقة فقط، وأمّا الأوراق الأخرى التي فقدت أو تلفت فإن المسؤولين استصفوا المفقود ورمَّموا التالف، والأوراق المحفوظة هي من الجلد السميك الجميل المظهر والرشيق الصناعة، وجهه صقيل بلون أصفر وقفاه مغضَّن ولونه أبيض.

وصف المصحف بمقاساته وعدد صفحاته وشكله

عندما كان المصحف في بطرسبورج حوالى سنة (١٨٩٠ م)، كان عدد صفحاته (٣٥٣) ورقة مضاعفة، مجموع أرقامها (٧٠٦)، وحجم كل ورقة بالمقاس التالي: (٢٨ سنتم طول. و٥٣ سنتم عرض). بالإضافة إلى (٦٩ صفحة) بدل سقوط وخرم وقع فيها. وهذه الأوراق من الكاغد العادي.

في كل صفحة من الصفحات الـ (٣٥٣)، يوجد نفس العدد من السطور المخطوطة وهو ١٢ سطراً، والكلمات كتابتها مستقيمة وحروفها كبيرة وجميلة ومتناسبة تناسباً كلياً.

أبعاد الصفحات هي (٦٨ × ٥٣ سنتم). وكل (٨ أو ١٠) صفحات تؤلف ملزمة على حدة.

العناية بالمصحف: من أجل الحفاظ على حياة هذا الأثر الاسلامي الثمين، فإن المسؤولين قد وضعوا له قواعد إدارية ومادية وفنية، وهم يطبقونها بدقة متناهية وحزم بالغ، وذلك لكي يُحفظ هذا المخطوط أطول مدة ممكنة، ويتمكن أبناء الأجيال القادمة من الاستمتاع ببركة مشاهدته.

فالمصحف موضوع في داخل صندوق حديدي يدور بابه الفولاذي الضخم ببطء، ويرى الانسان بداخله علبة من الخشب المتين وإناء من البلور الرقيق الشفاف المضمخ بالكافور، والكافور من المواد العطرية الطبيعية التي

تحفظ المخطوط من حشرة ضارة جداً لا يؤثر فيها إلاّ الكافور. والذي يريد مشاهدة المصحف يكلف الموظف المختص ليقوم بهذا العمل؛ وإذا سحبت العلبة وفتحت بعناية، فإنه يظهر بداخلها سفط من الجلد البني الداكن المغطّى بالمخمل، وفي داخل هذا السفط يوجد المصحف نفسه، ولا يمكن إخراجه من الصندوق لأن تعرِّضه للهواء يؤدي إلى تغيير لونه وفساده؛ ودائماً تتكرر عملية التعقيم الوقائي لصيانة هذا الأثر الشريف. وهذا التعقيم الذي يتم بواسطة عقار كيميائي خاص يتكرَّر بصورة منتظمة وتخضع له جميع أوراق المصحف على يد موظف فنّي خاص.

صور طبق الأصل عن المصحف: كنا ذكرنا من قبل، أنه في سنة (١٩١٥) قام المعهد الاركيولوجي في بطرسبورج بأخذ عدة صور من المصحف بالفوتوغراف، بعضها خُصّص للإهداء وبعضها خصِّص للبيع؛ ولما تأسست الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان سنة (١٣٦٣ هـ/١٩٤٣ م)، رأت هذه الإرادة أن تعيد تصويره من جديد لكي تتيح الحصول عليه لأكبر عدد من المسلمين في العالم؛ وحتى تتم الفائدة، فإنها كلفت أحد أعضائها البارزين وهو الشيخ اسماعيل مخدوم بأن يؤلف كتاباً عن هذا المصحف وتاريخه وأوصافه وموضوعه، فقام هذا العالم بما عهد إليه جزاه الله خيراً وأجزل مثوبته.

إهداؤه للكبراء من زوار الاتحاد السوفياتي وأصدقائه: إن المصحف العثماني الذي يحتفظ به مسلمو الاتحاد السوفياتي انتشر خبره في طول الدنيا وعرضها، لا سيما بعدما عرف القاصي والداني بالمرسوم التاريخي الذي أصدره لينين باسم قوميسارية الشعب السوفياتي؛ وقرأ الناس هذا المرسوم في جميع الصحف العالمية، الأمر الذي جعل الكبراء من زوّار البلاد السوفياتية يحرصون أن يتبرّكوا برؤية هذا المصحف والحصول على نسخة تذكارية منه، وان بعض هؤلاء الكبراء قد حققوا أمنيتهم بالفعل، ومنهم: المشير محمد أيوب خان الرئيس الباكستاني السابق، والدكتور ذاكر حسين الرئيس الهندي السابق، وجلالة الحسن الثاني ملك المغرب، وفي (١٥ أيار/مايو سنة ١٩٧٥)، قام الكسي كوسيغين بزيارة رسمية إلى الجماهيرية العربية الليبية، فانتهز هذه المناسبة وحمل معه نسخة من المصحف (المصور) وقدمه هدية كريمة باسم الشعب السوفياتي إلى الرئيس الليبي معمر القذافي، الذي عبّر للرئيس السوفياتي عن امتنانه لهذه البادرة التي تزيد في قوة الروابط الودية التي تشد الشعب الليبي العربي المسلم إلى الشعب السوفياتي صديق العرب والمسلمين.

نادرة لطيفة

وفي ختام هذه الدراسة التاريخية عن «المصحف العثماني في الاتحاد السوفياتي»، أذكر أنني عندما كنت في مدينة «أوفا» عاصمة باشيكريا، دعاني فضيلة الشيخ عبدالباري ايسايف مفتي المسلمين في القسم الاوروبي من

البلاد السوفياتي وسيبيريا، لمشاهدة إحدى الورقات التي تحتفظ بها الادارة الدينية هناك، وهي محفوظات في داخل خزانة ثمينة وجميلة. وقال لي فضيلة الشيخ المذكور بأن هذه الورقة أُخذت «خفيةً» من المصحف العثماني أثناء نقله من أوفا إلى طشقند قبل نحو خمسين سنة، وذلك لأن مسلمي أوفا يعتقدون بأن خلو مدينتهم من هذا الأثر الشريف يعرضهم للكوارث والمتاعب، لذلك لجأوا إلى استلال هذه الورقة من المصحف واحتفظوا بها في إدارتهم الدينية، حيث وضعوها تحت الحراسة المشددة، وهم لا يظهرونها إلاّ في المناسبات الدينية الرئيسية وعندما يزورهم كبار الشخصيات من ضيوف الاتحاد السوفياتي.

المصاحف المخطوطة الأخرى في مكتبات الاتحاد السوفياتي

بعد أن رافقنا «المصحف العثماني» المنسوب إلى عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين في رحلته الطويلة، من خارج بلاد الاتحاد والسوفياتي إلى داخلها، إلى حين ألقينا عصا التسيار وأنهينا هذه الرحلة عند طشقند حيث تركنا المصحف في خزانة متحف الآثار بهذه المدينة. ها نحن أولاد نستأنف التجوال في مكتبات الاتحاد السوفياتي؛ الحكومية والاسلامية لتقديم فكرة واقعية عن بقية المصاحف المخطوطة الأخرى التي تحتفظ بها هذه المكتبات، والتي حصلت عليها في مناسبات مختلفة وعن طرق مختلفة أيضاً.

المصحف في أيام كاترين الثانية امبراطورة الروسيا

في أيام هذه الامبراطورية سمعت بيروت هدير قنابل القراصنة الذي اقتحموا سورها الذي بناه أحمد باشا الجزار، ونصبوا مدافعهم النحاسية في سهلات البرج، التي عرفت منذ ذلك الحين باسم «ساحة المدافع» (Place de Canons). وهذه الامبراطورة التي تجاوبت مع طموح بني قومها في الوصول إلى المياه الدافئة (البحر الابيض المتوسط)، كانت تستخدم في عربتها القبطان **كوكوفتسوف** (١٧٤٥ - ١٧٩٣ م) مصنّف كتاب المغرب (١٧٨٦ - ١٧٨٧ م)، والذي صدر عنه طبعة للقرآن الكريم تولت الانفاق عليها الامبراطورة المذكورة. ولأسباب سياسية كادت تمر هذه الطبعة دون أن يشعر بها أحد في داخل الروسيا، بالرغم من أنها أحدثت ضجة كبرى في جميع أقطار أوروبا في ذلك الحين. على أننا لا نستطيع بيان ما إذا كانت هذه الطبعة صورة طبق الأصل عن مصحف مخطوط أو أنها كانت بالحروف الطباعية الحديثة. ومن سوء حظنا أننا عندما كنا نزور الاتحاد السوفياتي خلال شهر (تموز/يوليو سنة ١٩٧٩ م)، لم تتهيأ لنا الفرصة للإطلاع على هذه النسخة التي نرجو أن تواكبنا الظروف المقبلة لتحقيق هذه الغاية العلمية المفيدة.

المصاحف المخطوطة في المكتبة العامة بلينينغراد

في ضاحية **تسارسكوي سيلو** القريبة من بطرسبورج (لينينغراد حالياً) نشأ **خانيكوف** (Khanikov)، ولما

بلغ التاسعة عشر من عمره حمل عصا الترحال قاصداً بلاد المسلمين، مثل بخارى والقفقاس، ثم وصل إلى ايران حيث عُيِّن قنصلاً لبلاده في مدينة تبريز التاريخية، ومن خلال تعرفه على المسلمين وبلادهم اتجاه للعناية بالآثار الاسلامية والمخطوطات العربية والفارسية، ولما عاد إلى بلاده نقل إليها معه صوراً من حملة نابليون على مصر للمصور الفرنسي مارسيل، ومجموعة من المخطوطات الشرقية فيها كتاب « ميزان الحكمة » ـ في الفلسفة ـ لمؤلفه أبو جعفر المعروف بالخازني، من علماء القرن الثاني عشر الميلاد، وهو عجمي النسبة، خبير بالحساب والهندسة، وعالم بالأرصاد والعمل بها ـ كذا قال عنه القفطي في كتابه « أخبار الحكماء »، وقد نشر قسم من هذا الكتاب في [المجلة الشرقية الأميركية ـ ج ٨٥، ص ١٢٨].

كما أن خانيكوف المذكور نقل معه كتاب « تاريخ الخلافة » للصولي، ومجموعة أخرى من الكتب الشرقية. ومن أهم ما قدمه، لمكتبة بطرسبورغ في حينه، مجموعة من القرآن الكريم مكتوبة بالخط الكوفي. وإننا نعتقد بأن هذه المجموعة ما تزال موجودة بالمكتبة الوطنية الحالية في لينغراد، وربما كانت هي التي اطلعنا على بعض نسخها أثناء وجودنا في هذه المدينة، خلال زيارتنا للاتحاد السوفياتي.

وعندما يكون المصحف المخطوط موضوعاً لحديثنا، فلا بد لنا من الإشارة إلى المستشرق **كراتشكوفسكي** (Krathovski) الذي ملأ الدنيا وشغل أهل الفكر وعلماء العربية، بما ألفه أو حققه أو نشره من تراث العروبة والاسلام. وأمَّا بالنسبة إلى المصحف المخطوط، فإن كراتشكوفسكي دوَّن في نشرة مجمع العلوم مجموعة من مخطوطات القرآن الكريم **لأوزبتزكيّ** وذلك سنة ١٩١٧ م، بالإضافة إلى المخطوطات العربية الأخرى التي أحضرها من القوقاز؛ وقد وضع المخطوطات القرآنية والعربية يومذاك في القسم الآسيوي من متحف مجمع العلوم.

وإن كراتشكوفسكي يستحق دراسة أوسع، سنقدمها فيما بعد إن شاء الله عند كلامنا عن الاستشراق السوفياتي.

واوزبنزكي (Uspenski)، الذي ذكرناه في معرض كلامنا عن كراتشكوفسكي، كان يملك مجموعة من المصاحف المخطوطة حصل عليها من مدينة طرابزون التركية، وهي التي ما تزال موجودة في متحف مجمع العلوم الذي أشرنا إليه قبل حين.

ومن نوادر مخطوطات القرآن الكريم في القرن السادس عشر الميلادي، ما اهتمت به السيدة **فيرا كراتشكوفسكايا**، زوجة كراتشكوفسكي، التي كانت خبيرة بالنقوش الاسلامية؛ وهي التي أصدرت مجلة « الكتابات الشرقية » سنة ١٩٤٧ م. وتعتبر مجموعة « نوادر مخطوطات القرآن » المذكورة من أهم آثارها.

وقبل أن نختم موضوع المصاحف المخطوطة بالاتحاد السوفياتي، فلا يسعنا إلاَّ أن ننوِّه بالجهود التي يبذلها سماحة المفتي الشيخ **ضياء الدين بابا خانوف** في الحفاظ على النسخ الكثير من المصاحف المخطوطة والمرصَّعة بالجوهر والمزينة بالذهب التي ترجع إلى عهود قديمة، وهو يعتز بوجودها في مكتبة الادارة الدينية في طشقند التي تلاقي كل ازدهار تحت رعايته في الوقت الحاضر؛ كما أن سماحته يحتفظ في هذه المكتبة بالعديد من نسخ المصحف العثماني المصورة التي يعرضها للزوار الكثيرين الذين يقصدون هذه المكتبة من داخل الاتحاد السوفياتي ومن خارجه ويحرصون على التبرُّك برؤية هذا المصحف الأثري الكريم. ثم إن بعض المصاحف المخطوطة الموجودة في مكتبة الادارة الدينية في طشقند تستعمل أساساً صالحاً ومصدراً وثيقاً للطبعات القرآنية التي تصدرها هذه الادارة بين الحين والآخر. وعندما بدأت الجمعيات والادارات الدينية ممارسة نشاطاتها الاسلامية، بمعاونة مجلس الأديان التابع للحكومة المركزية في موسكو، فإنها بادرت إلى طبع القرآن الكريم بتصوير لبعض المصاحف المخطوطة. كما أن هناك عدة طبعات صدرت قبل سنة (١٩١٧ م)، اعتمدت على الخط النسخي للمصاحف المخطوطة التي كانت موجودة؛ بل إن بعض الاتقياء كانوا يكتبون بأيديهم العديد من المصاحف مقلِّدين الخطوط النسخية في مخطوطاتهم القديمة، وذلك على عادة المسلمين في التقرُّب إلى الله تعالى عن طريق كتابة المصحف. وقد ظلت هذه العادة قائمة، حتى بعد ظهور الطباعة الحديثة وانتشار المصحف. وقد ظلت هذه العادة قائمة، حتى بعد ظهور الطباعة الحديثة وانتشار المصاحف المطبوعة أو للمصورة على أحدث الوسائل الفنية. ويقول سماحة المفتي الشيخ ضياء الدين باباخانوف في كتاب « المسلمون في الاتحاد السوفياتي »، إن هناك عدة نسخ من القرآن الكريم صدرت في العهد القيصري، وهي مكتوبة باليد على أساس الخط النسخي المعروف بالبخاري.

وفي سنة (١٩١٣ م)، قبيل الحرب الكونية الأولى، تم في طشقند طبع أول نسخة مصورة بالخط النسخي من القرآن الكريم، أخذت عن المصحف الذي كتبه الخطاط الاوزبكي الشهير **ميرزاخوجاندي**، وهو من أبناء هذه البلاد. وفي سنة (١٩٥٥ م)، قامت الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاغستان ـ بمبادرة من الشيخ ايشان (احسان) باباخانوف ابن عبدالمجيد خان، المفتي السابق لطشقند ووالد سماحة الشيخ ضياء الدين باباخانوف خليفته في هذا المنصب الاسلامي الكبير ـ قامت هذه الإدارة بإعداد طبعة جديدة من القرآن الكريم، حققتها لجنة من أشهر علماء الاسلام في الاتحاد السوفياتي أُلّفت خصيصاً للقيام بهذا العمل الجليل؛ وهذه اللجنة استحسنت طبع القرآن الكريم نقلاً عن الأصل الصادر في مدينة قازان، سنة (١٩٠٨ م)، وقد انتهت الطبعة المذكورة سنة (١٩٥٧ م)، وهي مطبوعة على ورق جيِّد قدمته الحكومة السوفياتية لمواطنيها المسلمين بدون مقابل مساهمة منها في هذا العمل الصالح.

وفي سنة (١٩٦٠)، أصدرت الإدارة الدينية لمسلمي طشقند وقازاغستان طبعة أخرى من القرآن الكريم، وذلك عن الأصل الذي طبع به في القاهرة، وهذه الطبعة من حجم كبير الكبير، وفي آخر صفحاتها كتبَ باللغة التركية الأوزبكية، العبارات التالية ـ وقد طبعت بمبادرة من سماحة الشيخ ضياء الدين باباخانوف حفظه الله ـ .

خاتمة الطبع

بحمد الله وتوفيقه، أورتا آسيا وقازاغستان مسلمانلري رينية نظارتي نك تابشيريخي ن أوشبو قرآن كريم تاشكند شهريده كي ٤ نجي باسمه خانه ده طبع ايتيلدي.

سنة ١٣٧٩ هـ/ سنة ١٩٦٠ م

وعندما كنت موظفاً في دار الكتب الوطنية، قبل نحو عشر سنوات، زار السفير السوفياتي في بيروت هذه الدار، وأهداني نسخة من الطبعة المذكورة، وكتب عليها توقيعه الشخصي تذكاراً لهذه الزيارة. وما أزال أحتفظ بهذه النسخة في خزانة كتبي حتى اليوم، اعتزازاً بهذه البادرة التعبيرية اللطيفة من قبل السفير السوفياتي الكريم.

وفي سنة (١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م)، بدأت الاستعدادات في العالم الاسلامي للاحتفال بمرور (١٤٠٠ سنة) على نزول القرآن الكريم على قلب النبي **محمد صلى الله عليه وسلم**، سيد المرسلين والخلق أجمعين؛ لذلك قررت الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاغستان المشاركة في هذه الاحتفالات. وبهذه المناسبة، أعادت طبع القرآن الكريم على أساس النسخة المطبوعة سنة (١٩١٣ م) التي ذكرنا بأن كاتبها هو ميرزا هاشم خوجاندي ـ وهي أيضاً بالخط النسخي الذي كتبت به النسخة السابقة. وقد كتب على الصفحة الأولى من هذه الطبعة العبارة التالية:

﴿في كتاب مكنون لا يَمسُّه إلاَّ المطهرون، تنزيل من رب العالمين﴾.

هذا القرآن موافق في الرسم لمصحف سيّدنا عثمان رضي الله عنه، ١٣٨٨ هجري.

وجدير بالذكر، أن المقصود بالرسم العثماني كما هو مكتوب هنا، الناحية الاملائية وليس الناحية الشكلية، لأن المصحف العثماني رسم كما هو معروف بالخط الكوفي، وليس بالخط النسخي كما هو الشأن في هذا القرآن الكريم.

كما كتب على الصفحة الأخيرة من المصحف العبارات التالية:

خاتمة الطبع

حامداً لله ومصلّياً على رسوله الكريم، فقد نجز طبع القرآن الكريم وتجليده بمطبعة الحكومة في مدينة طشقند عاصمة ازبكستان السوفيتية، تحت إشراف الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاخستان وبمصارفها إسهاماً منها في العيد الاسلامي العالمي، بمناسبة مرور ألف وأربعمائة عام لنزول القرآن العظيم، ووقع الاختيار على اتخاذ هذه النسخة المطبوعة في طشقند سنة ١٩١٣، أصلاً لطبعنا هذا، إذ كانت ممتازة بخطها الجميل محررة في رسمها وفي قراءاتها وعدِّ آيها، على ما قرّره علماء هذا الفن وأئمة هذا الشأن. على أنه قد قامت لجنة من كبار القراء بدراستها وتحقيقها من تلك النواحي، وبإصلاح أخطاء مطبعية وجدت فيها؛ فجاءت، إن شاء الله تعالى، منقّحة. والله يعفو عمّا زاغ عنه البصر وطغا فيه القلم. وهذه ثالث طبعات القرآن، قامت بها الادارة الدينية في هذه السنوات العشر الأخيرة، وفقنا الله سبحانه لخدمة كلامه كما ينبغي والحمد لله أولاً وآخراً، وكان سنة ١٣٨٨ هجرية.

وألحقت هذه الطبعة، في آخرها، بصفة خاصة تضمّنت رموز وعلامات الوقف، وأخرى فيها فهرس السور بأسمائها وأرقام صفحاتها. وبعد نهاية سورة **الناس**، آخر سور القرآن الكريم، حسب النص التوقيفي المأثور عن النبي **محمد صلى الله عليه وسلم**، زُيِّنت الصفحة بأختام أسماء اللجنة التي قامت بكتابة المصحف وأشرفت على طباعته، وهم: الكاتب ميرزا هاشم خوجندي، وقاضي شرع خواجه علام رسول خلف، خواجه محمد رسول، وملاَّ محمد صابري قادري تاشكندي.

وهذه الطبعة، أتبرَّك بجيازتها، وهي هدية قدمها لي سماحة المفتي الشيخ ضياء الدين باباخانوف، عندما كنت في طشقند تلبية لدعوة سماحته للاشتراك بالذكرى السنوية العاشرة لصدور مجلة « المسلمون في الشرق السوفياتي » الناطقة باسم الادارة الدينية لمسلمي طشقند وقازاغستان، وذلك في شهر شعبان المعظم (١٣٩٩ هـ) الموافق شهر تموز/يوليو (١٩٧٩ م)، وهذه الطبعة بالحجم الكبير وهي مجلدة تجليداً فاخراً.

وفي سنة (١٩٦٩ م)، صدرت طبعة من القرآن الكريم بالحجم الكبير، وبعد ذلك بسنة أي في سنة (١٩٧٠ م)، أصدرت الإدارة الدينية لمسلمي طشقند وقازاغستان طبعة من القرآن الكريم بالحجم الصغير. وفي المدة الأخيرة، أي سنة (١٣٩٧ هـ/١٩٧٧ م)، اشتركت الإدارات الدينية الأربع في الاتحاد السوفياتي بإصدار طبعة جديدة للقرآن الكريم على نفقتها مجتمعة؛ وجرى تصحيح هذه الطبعة على يد مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر. وقد اعتمدت هذه الطبعة على الأصل الذي قدمه لهذه اللجنة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر؛ وقد أُنهي هذا المصحف بعد دعاء الختم بفهرس للسور. وبعد هذا الفهرس تبويب آيات أحكام القرآن وتوجيهاته، الذي تضمَّن الموضوع والسورة أو الآية التي تتناوله مع تحديد رقم السور والآيات، بحيث يسهل على

تالي هذا الكتاب الكريم العثور على الآية التي تتناسب مع الآية المطلوبة، وهذا التبويب قُسِّم إلى (١٦) باباً وهي التالية:

١ ـ الصلاة، والغسل، والوضوء والتيمم.
٢ ـ الزكاة والصدقات.
٣ ـ الصيام.
٤ ـ الحج والعمرة.
٥ ـ الإحسان إلى الوالدين وذي القربى.
٦ ـ الزواج والايلاء والظهار والطلاق والرضاع والعدة.
٧ ـ الميراث.
٨ ـ اليمين.
٩ ـ الربا والخمر والميسر.
١٠ ـ المعاملات.
١١ ـ الاصلاح بين الناس والاتحاد والشورى.
١٢ ـ الشهادة بالحق والحكم بالعدل وأداء الواجبات بأمانة.
١٣ ـ القصاص.
١٤ ـ الجهاد.
١٥ ـ آداب وأخلاق وتوجيه.
١٦ ـ شكر ودعاء وابتهال ومناجاة وتسبيح واستعاذة.

أما ختم الطبعة من هذا المصحف، فهو العبارات التالية التي تحدِّد الأصل الذي اعتمد في الطبع، والجهة التي تولت التصحيح وأعطت الموافقة بالنشر، والهيئات التي تولت الانفاق على هذا المشروع، ثم تاريخ صدور هذه الطبعة. وهذا هو النص المكتوب:

طُبع هذا القرآن المجيد من أصل المصحف الشريف الذي قدمه لنا الإمام الأكبر شيخ الأزهر، وصححه مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر، طبع على نفقة الإدارات الدينية الأربع لمسلمي الاتحاد السوفياتي، ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م.

وهذه النسخة بحيازتي، وهي هدية قدمت لي من قبل سماحة الشيخ ضياء الدين باباخانوف، عندما كنت في طشقند في شعبان سنة (١٣٩٩)، تموز /يوليو سنة (١٩٧٩). وهنا، فإننا نحب أن نعرب عن إعجابنا بما

قامت به الإدارات الدينية من تبويب الموضوعات التي تضمّنها القرآن الكريم في هذه الطبعة الجميلة الأنيقة، وإن هذا العمل قد أسدى، من غير شك، خدمة كبيرة للراغبين في الإفادة من هذا الكتاب الالهي المقدس، فيما يتصل بتمكينهم من معرفة الآيات التي تبين هذه الموضوعات بحسب أرقامها والسور التي وردت فيها؛ وفي ذلك من التيسير والتسهيل على هؤلاء الراغبين، إذ يصلون إلى بغيتهم دون أن يتكلّفوا عناء البحث عن الآيات المطلوبة، عن طريق مراجعة القرآن بكامله كلما احتاجوا إلى ذلك. ولعل الذين قاموا بهذا التبويب العلمي المفيد قد استأنسوا بالدراسة التي قام بها المستشرق الفرنسي جول **لابوم** (Jules La Beaume) في كتابه «القرآن المفصل» (Le Koran anolysé)، الذي نشره في باريس سنة (١٨٧٨ م)، ونقله إلى اللغة العربية محمد فؤاد عبدالباقي، في شهر شعبان عام (١٣٤٢ هـ)، الموافق ٨ مارس/آذار سنة (١٩٢٤ م)، وجعل عنوانه «تفصيل آيات القرآن الحكيم»، وهذا الكتاب مقسّم إلى (١٨) باباً، هي: التاريخ ـ محمد صلى الله عليه وسلم (التبليغ) ـ بنو اسرائيل (التوراة) ـ النصارى ـ ما بعد الطبيعة ـ التوحيد ـ القرآن ـ الدين العقائد ـ العبادات ـ الشريعة ـ النظام الاجتماعي ـ العلوم والفنون ـ التجارة ـ علم اجتماعي ـ العلوم والفنون ـ التجارة ـ علم تهذيب الاخلاق ـ النجاح ـ .

وتحت كل باب منها، فروع تبلغ جميعها (٣٥٠) فرعاً، وتحت كل فرع جميع ما ورد فيه من آيات التنزيل، ممّا لم يسبق جمعه وتنسيقه في كتاب.

هذا، وإنَّ عمل اللجنة المذكورة جدير بالتقدير والثناء، وهو مدخل إلى التوسُّع في هذا الموضوع بما يتمم الفائدة منه إن شاء الله.

وبعد، هذا ما تيسّرت لنا معرفته عن المصاحف المخطوطة الموجودة في الاتحاد السوفياتي بالإضافة إلى المصحف العثماني، وجدير بالذكر أن بعض هذه المصاحف، التي شاهدناها فعلاً في جمعية المستشرقين السوفيات بلينغراد، ترجع إلى عهود متقدمة، أي إلى أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي؛ ولقد لاحظنا بعضها وقد تطرّزت حواشيه بالتقاسير والشروحات، حيناً باللغة العربية وحيناً باللغات الشرقية الأخرى، وهي محل عناية أعضاء الجمعية المذكورة الذين يقومون بصيانتها لتقاوم عوامل الزمن.

القرآن الكريم المستشرقون السوفيات

الباعث الأساسي الذي دفع العلماء الغربيين إلى التوجُّه للاستشراق، كان وراءه رغبة هؤلاء العلماء في فهم الدين الاسلامي، الذي انتزع المبادرة من الأديان الأخرى في الشرق، واحتوى الشعوب التي تقطن في هذا القطاع الواسع من العالم القديم، وجعلها أمة واحدة تتجه في صلاتها إلى مكة المكرمة حيث الكعبة المعظمة،

وتناجي ربها في صلاتها الذي أدرج من حين نزوله على قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم، في القرآن الكريم، الذي يعتبر مفتاح العقيدة الدينية عند المسلمين. وإن الروس، هم كغيرهم من أبناء العالم الغربي، دخلوا فيما دخل فيه سائر الغربيين، ولم يكونوا أقل من غيرهم في الحرص على فهم الدين الاسلامي وأتباعه من خلال هذا الكتاب، الذي يعتقد أهله بأن كلام الله تعالى الذي لا تبديل لكلماته ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وإذا كانت أقطار أوروبا الغربية اتجهت إلى الشرق الاسلامي لدراسة القرآن الكريم، فإن القطر الروسي الواقع في القسم الشرقي من أوروبا وجد ضالته المنشودة في قلب امتداده الجغرافي، ومنذ زمن بعيد. فلما سقطت الامبراطورية المغولية تحت سلطان الروس في القرن السادس عشر للميلاد، خرجت الروسيا من حدودها الاوروبية إلى آسيا، فربط الاسلام بينها ـ بعد أن أصبح فيها ما يزيد عن أربعين مليون مسلم في آسيا الوسطى والقفقاس ـ وبين اللغة العربية بروابط دينية وثقافية وثيقة. ولطالما فاخرت الروسيا بانتسابها إلى التراث العربي الاسلامي، عن طريق الاعلام الذين أنجبتهم بلاد الاتحاد السوفياتي على فترات مختلفة، مثل: **الخوارزمي والبيروني وابن سينا والفارابي**. ولعلَّ أقدم الآثار والمخطوطات والكتابات المرقومة على الأحجار، التي تشير إلى العلاقة القديمة بين الروسيا وبين العرب المسلمين، رسالة على الرق موجهة من صاحب صغد في طاجيكستان «ديواشي» إلى الأمير **الجراح بن عبدالله**، وتاريخها يرجع إلى سنة (٩٩ أو ١٠٠ هجرية)؛ كما وُجد نقش عربي على صوى (حجر من أحجار الأميال) قرب تفليس، يرجع تاريخه إلى القرن الأول الهجري. كتب فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، ثلاثة أميال من تفليس». وكذلك عُثر على نقود أرشدت إلى وجود دار لسك النقود في دمانيس قرب تفليس، يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر الميلادي، هذا بالإضافة إلى عدة آلاف من سكان بخارى وقاسقاداريا، في آسيا الوسطى اليوم، من أصل عربي؛ ونحن نجهل كيف وصل هؤلاء العرب إلى المواطن المذكورة، فهل هم من بقايا الفاتحين الذين جاءوا مع قتيبة بن مسلم الباهلي، الذي فتح تلك البلاد، أم هم من أهالي سورية والعراق الذين حملهم تيمورلنك معه أسرى عندما احتل هذين القطرين في القرن الرابع عشر الميلادي؟

وأياً ما كان الرأي في هذا الموضوع، فإن الروس عرفوا العرب عن طريق الاحتكاك العسكري في العصور القديمة، كما عرفوهم عن طريق الاحتكاك الثقافي في العصور الحديثة؛ وكان القرآن المدخل الذي توسلوا به إلى معرفة سر الاسلام وأوضاع المسلمين.

الطبعة الأولى للقرآن في الروسيا

عرضنا من قبل اسم القائد البحري كوكوفتسوف (١٧٤٥ ـ ١٧٩٣ م)، على أنه أول من طبع القرآن

الكريم في الروسيا، وكان ذلك بين (١٧٨٥ - ١٧٨٧ م). وأن الامبراطورة **كاترين الثانية**، هي التي انفقت تكاليف هذه الطبعة التي تكرّرت أربع مرات بعد ذلك في سنوات (١٩٧٠، ٩٣، ٩٦، ٩٨)؛ ثم طبع في قازان سنة (١٨٠١). وإذا كانت هذه الطبعات لم تلفت الأنظار إليها في الروسيا نفسها، فإن بقية الأقطار الاوروبية اهتمت بها كثيراً وأثارت فيها ضجة كبيرة.

هذا، مع العلم، بأن أول طبعة للقرآن الكريم باللغة العربية ظهرت في العالم، بل أول كتاب عربي طبع هو القرآن الكريم، الذي اعتنت به مطبعة **بغانينودي بغانيني** في مدينة **البندقية** بإيطاليا. وقيل إن هذه الطبعة صدرت ما بين سنة (١٥٠٩ و١٥٣٨ م)، ولكن هذه الطبعة لم تصل إلينا، مع الأسف الشديد، لأن الكسندر السابع باباروما في ذلك الحين غضب، وأمر بإحراق جميع النسخ المطبوعة. وقد نَوَّهت بهذه الطبعة المستشرقة الايطالية **أولغابينتو** في كتابها «المؤلفات الايطالية في الإسلام»، ويقول الاستاذ يوسف اسعد **داغر** صديقنا وزميلنا في دار الكتب الوطنية في بيروت، المفهرس اللبناني الذائع الصيت، إن الطبعة العربية الأولى للقرآن التي ظهرت لأول مرة في أوروبا، ذكرها المفهرس الهولندي المشهور **أربينوس**، وذلك في الصفحة (٨) من الفهرس الذي أعده للكتب العربية، والذي ظهر في ليدن عام (١٦٢٠ م). وهو يشير إلى أن هذه الطبعة ظهرت في البندقية بالمطبعة المذكورة.

كما ذكر هذه الطبعة أيضاً، المفهرس الالماني **شنورر** في كتابه الذي صدر باللاتينية عام (١٨١١ م) بعنوان «المكتبة العربية»، وهو فهرس استعرض فيه أسماء الكتب العربية التي طبعت في أوروبا حتى تاريخ صدور كتابه هذا.

وهكذا نرى أن القرآن الكريم طبع في أوروبا قبل أكثر من (٢٥٠) سنة من طبعه في الشرق الاسلامي، وأنه في الوقت نفسه أول ما طبع من الكتب العربية إطلاقاً.

أما أول ترجمة للقرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية، **فهي** التي قام بها **يوهانس أوبورتيوس** الذي ترجم القرآن للاتينية في مدينة **بال** السويسرانية، وكان ذلك عام (١٥٤٢ م). ويقول المؤرخ الانكليزي **ستاينبرغ** في كتابه «الطباعة خلال ٥٠٠ سنة»، إن هذه الترجمة حملت يومها مقدمتين: إحداهما، لمارتين لوثر. والأخرى، لمساعده ويده اليمنى ميلانكتين، أحد كبار علماء عصره المعروفين.

وأما أول كتاب ظهر في قواعدْ اللغة العربية، فقد ظهر في **ليدن**. وهو الذي ألفه **اربينوس** سنة (١٦١٣ م)، وتبعه كتاب «المجموع المبارك في التاريخ» لابن العميد، المعروف بالمسكين، الذي ظهر سنة (١٦٥٠ م) مع ترجمة لاتينية.

المستشرقون الروس يوالون اهتمامهم بالقرآن الكريم

وفي سنة (١٨٣٢ - ١٨٣٦) قدِم **جوتفالد** (Gottwaldt) - (١٨١٣ - ١٨٩٧ م) من جامعة برسلاو إلى الروسيا، لإعطاء دروس خاصة. فكلّفه «قازان» بوضع فهرس للمخطوطات الشرقية الموجودة في مكتبة بطرسبورج (١٨٤١ م). وفي هذه الأثناء نشأت بينه وبين الشيخ محمد عياد **الطنطاوي** (١٨١٠ - ١٨٦١) - من أهل مصر، صداقة شخصية. والشيخ المذكور استدعاه قيصر الروسيا في العام (١٨٤٠ م) للتعليم في مدرسة الألسن التابعة لوزارة الخارجية الروسية، ثم خلف سينكوفسكي (Sinkoviski) على كرسي اللغة العربية بجامعة بطرسبورج، وبقي فيها من سنة (١٨٤٧) حتى سنة (١٨٦١ م).

وإن جوتفالد، هو الذي وضع فهرس المخطوطات العربية بجامعة **قازان** في جزئين؛ كما وضع أول معجم كبير باللغة الروسية، استند على آيات من القرآن الكريم وأبيات من الشعر الجاهلي كشواهد، (قازان ١٨٦١ - ١٨٦٣ م).

وفي سنة (١٨٥٩ م)، قَدِم إلى الروسيا رجل فارسي يدعى **كاظم ميرزا بك**، حيث ارتد عن دينه الاسلامي واعتنق النصرانية، عمل هذا الرجل مدرساً للغة العربية في معهد الرهبان الارثوذكس بقازان، ثم في جامعة بطرسبورغ، وفي هذه المدينة ألّف كتاب «مفتاح كنوز القرآن» في الكشف عن مفردات القرآن، وكتب عليه: مقدمة كتاب مستطاب مفتاح كنوز القرآن من تصنيفات ميرزا كاظم بك. وتوفي المذكور سنة (١٨٧٠ م).

وفي ذلك الوقت، برز اسم **كوفالفيسكي** (Kowalewiski) (١٨٠٠ - ١٨٧٨ م) الذي تخصّص في فقه اللغات القديمة، ومن آثاره ترجمة القرآن الكريم من العربية إلى اللاتينية، إلاّ أن هذه الترجمة لم تطبع، وما تزال مخطوطة حتى الآن.

كما برز كذلك اسم **سابلوكوف** (Sabloukov) (١٨٠٤ - ١٨٨٠ م) الذي تخرّج من كلية أصول الدين في موسكو (١٨٢٦ - ١٨٣٠)، حيث درس اللغة العبرية. ثم من المدرسة الدينية في ساراتوف، حيث تعلم اللغتين العربية والتتارية، وكان قد انصرف أيضاً إلى الدرسات العربية طوال (١٨) سنة. ومن آثاره «ترجمة القرآن» وهي أول ترجمة علمية إلى الروسية (١٨٧٨ م، ثم تكرر طبعها عدة مرات)؛ وله كتاب آخر عن القرآن الكريم تضمّن قوانين وتعاليم الاسلام (١٨٨٤ م)، وفيه جدل وحشو.

وبارتولد (Barthold) (١٨٦٩ - ١٩٣٠ م)، الذي تخرج من جامعة بطرسبورج، وعين أستاذاً لتاريخ الشرق الاسلامي فيها. من آثاره، التي نشرها في حوليات المعهد الشرقي التابع للمتحف الآسيوي - في طشقند،

دراسة عن «القرآن والبحر» (١٩٢٥ م)؛ وله أيضاً في الاسلاميات كتاب عن «الاوزاعي» المدفون في الضاحية الجنوبية من مدينة بيروت (١٩٢٩ م).

وعثمانوف (Youchmanov) (١٨٩٦ - ١٩٤٦ م) أحد طلاب جامعة لينغراد ثم أحد أساتذتها فيما بعد؛ وهو من الذين كتبوا القرآن بالترجمة اللاتينية (الصحافة والثورة، ١٩٣٢ م)، بالاضافة الى كتاب «معجم الكلمات الدخيلة، لا سيما العربية، على الروسية (١٩٢٣ م)».

وأغناطيوس **كراتشكوفسكي** (Kratchovski) (١٨٨٣ - ١٩٥١ م)، الذي فتنه الشرق بسحره فانصرف إلى تعلّم لغاته، لا سيما اللغة العربية بالذات، ولهذا المستشرق الكبير آثار قيمة وكثيرة، وهي تزيد عن (٤٥٠) كتاباً ما بين تأليف وترجمة وتفسير وتحقيق ونقد ودراسة، كتبها باللغات الروسية والفرنسية والالمانية والعربية. وأكثر مقالاته نشرها في «مجلة الشرق البتروغرادية»؛ وقد طُبع فهرس مؤلفاته ودراساته من سنة (١٩٢١) حتى سنة (١٩٥٥ م). وإن هذا المستشرق زار بيروت وأشاد بفضل علمائها وأساتذتها في مقالات نشرت خلال السنوات (١٩٤٥ - ٤٦ - ٤٨ - ٥٨)، وقد منح جائزة ستالين من الدرجة الأولى تقديراً لجهوده في حقل الاستشراق؛ ومن أفضل آثاره العلمية ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الروسية، الذي أصدره على حدة مجمع العلوم السوفياتي (١٩٦٤ م)، ومن دراساته القرآنية «معنى كلم **النجم**» في القرآن وتفسير السورة (٥٥) - **الرحمن**. وقد أخذ مجمع العلوم السوفياتي على عاتقه نشر مؤلفات هذا المستشرق، وأنهى منها ستة مجلدات.

وعندما كنت في موسكو (١٩٧٩/٧)، أبديت رغبتي في الحصول على نسخة من الترجمة الروسية للقرآن الكريم التي وضعها كراتشكوفسكي، إلاّ أن أصدقاءنا المستشرقين الروس اعتذروا من عدم تمكنهم من تلبية رغبتي لنفاد هذه الترجمة، ولعل هذه الرغبة تتحقق في المستقبل عند إعادة طبعها من جديد.

وإن من أحسن التذكارات التي حملتها معي من لينغراد، التي زرتها بدعوة من وكالة الأنباء السوفياتية (نوفوستي) في (١٩٧٨/٧/١٨ م)، أحد كتب هذا المستشرق وعنوانه «دراسات في تاريخ الأدب العربي» الذي طبع بإشراف **كلثوم عودة فاسيليا** في دار النشر «علم» بموسكو سنة (١٩٦٥ م)، وقد أهداه لي الصديق الكريم المستشرق السوفياتي المسلم الاستاذ أنس خالدوف، وكتب لي على غلافه الداخلي: «هدية إلى السيد محمد طه الولي بمناسبة زيارة بلينغراد، ١٩٧٩/٧/١٨».

وسيمينوف (Semenov)، (١٨٧٣ - ١٩٥٨ م)، الذي تخرج من كلية لازاريف، وانتدب للتدريس في طشقند ثم عيّن مديراً لكلية التاريخ بمجمع العلوم في طاجسكتان. وقد اشتهر سيمينوف بسعة معرفته لآسيا

الوسطى وعلاقة الاسلام في هذه المنطقة ببقية أنحاء الاتحاد السوفياتي. وان هذا المستشرق اهتم بصورة خاصة بدراسة الحركة الاسماعيلية، وتوفر على تحقيق مخطوطات هذه الحركة الباطنية، وله دراسة نشرت في مجلة « ايران » سنة (١٩٢٧)، عنوانها « القرآن في نظر الاسماعيليين ».

والمستشرق اسكندر **تشوسكو** (Chodzko)، (١٨٠٤ - ١٨٩١ م)، كان هذا المستشرق ضليعاً باللغات الشرقية لا سيما الفارسية. سافر إلى بلاد العجم (ايران) وكتب عن الاسلام وعن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك كتب عدة أبحاث ودراسات عن القرآن الكريم. توفي **تشوسكو** في ليتوانيا في (٢٠ كانون الأول/ديسمبر سنة ١٨٩١ م).

ومن المستشرقين الروس **كازيمرسكي**، وهو من أصل بولوني توفي سنة (١٨٧٠) ترجم له يوسف **اليان سركيس** في كتابه « معجم المطبوعات العربية والمعربة »، قال: ولد في بولونيا، واستوطن فرنسا ونشر فيها مطبوعات شرقية مفيدة، لا سيما معجمه الكبير العربي الفرنساوي. وقد نقل القرآن الشريف إلى الفرنسية وترجمته معروفة بدقتها وسلالتها.

ولهذا المستشرق كتب أخرى منها: « حكاية أنيس الجليس »، منتخبة من كتاب **ألف ليلة وليلة**، طبعت مع ترجمتها إلى اللغة الفرنسية وبعض ملحوظات للمترجم، وكتاب اللغتين العربية والفرنساوية، ويعرف بقاموس كازيمرسكي، أعاد طباعته في مصر **عبيد غلاب** أحد المترجمين في دار الطبعة الخديوية، بأربعة مجلدات سنة (١٨٧٥).

ومن النساء الروسيات اللاتي عنين بالدراسات القرآنية، فيرا **كراتشكوفشكايا** (Krachkovskaya) المولودة عام (١٨٨٤ م) زوجة المستشرق كراتشكوفسكي، وهي خبيرة بالنقوش الاسلامية. وقد أصدرت مجلة « الكتابات الشرقية » (١٩٤٧ م)، من آثارها: « نوادر مخطوطات القرآن من القرن السادس عشر » (١٩٦٠).

وكاشتاليفا (Kashtaleva) (١٨٩٧ - ١٩٣٩ م)، تخرجت من جامعة موسكو. من آثارها في الدراسات القرآنية تقارير نشرتها في مجمع العلوم وهي، « مصطلحات: **أناب - وأسلم - وأطاع - وشهد - وحنف** في القرآن »، و« التاريخ الزمني لسور القرآن **الثامنة** (الانفال) **والرابعة والعشرين** (النور) **والسابعة والاربعين** (محمد) - (١٩٢٧). وحول ترجمة الآيتين (٧٧) و(٧٨) من السورة **الثانية والعشرن** في القرآن (القصص)، وكتاب « مصطلحات القرآن في ضوء جديد » (١٩٢٨)، وكتاب « القرآن وبوشكين (الشاعر الروسي الشهير) ».

الدراسة المقارنة بين القرآن والانجيل في الروسيا

بدأ تدريس العربية في الروسيا بجامعة قازان (١٨٠٤ م)؛ وانتقلت العربية منها إلى معهد الرهبان الارثوذكس بقازان نفسها، حيث اتخذت هذه الدراسة لوناً جديداً، وهو مقابلة للقرآن بالانجيل؛ ومن المدرّسين في هذا المعهد: **كاظم ميرزا بك** (العجمي المتنصّر) **وايلمينسكي** (١٨٤٦)، **وسابكولوف** (١٨٦٢)، وبندلي الجوزي (١٨٧١ - ١٩٤٢ م) من أهل القدس الشريف.

★★★

أمّا بعد، فإننا نرجو أن نكون فيما عرضناه من أطوار الدراسات القرآنية في بلاد الروسيا، سواء فيما يتعلق بالمصحف العثماني أم المصاحف المخطوطة وامطبوعة، بالإضافة إلى أسماء المستشرقين الروس الذين اهتموا بهذا الكتاب الكريم، ترجمةً أو تحليلاً أو تحقيقاً، أن نكون قد أتحنا لمن يطلع على هذا الموضوع فرصة الوقوف على التاريخ الكامل للقرآن الكريم في الروسيا، وفوق كل ذي علم عليم.

المراجع

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردى الاتابكي.
- تلفيق الأخبار في تاريخ قزان والبلغار ـ للشيخ محمد مراد بن عبدالله الرمزي البلغاري ثم المكي.
- مجلة بلاد السوفيات.
- مباحث في علوم القرآن ـ للدكتور الشيخ صبحي الصالح.
- مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ـ مقالة الأب توما دبو المعلوف، وجعفر الحسني، وعبدالرحمن الكيالي.
- أخبار الحكماء ـ للقفطي.
- المجلة الشرقية الأميركية.
- نشرة مجمع العلوم السوفياتي ـ كراتشكوفسكي.
- المسلمون في الاتحاد السوفياتي ـ الشيخ ضياء الدين بن ايشان بابا خان.
- المؤلفات الاسلامية في الاسلام ـ أولغا بنيتو.
- المكتبة العربية، الطباعة خلال ٥٠٠ سنة ـ المهندس شنورر (الالماني).
- معجم المطبوعات العربية والمعربة ـ يوسف اليان سركيس.
- اعجاز القرآن ـ مصطفى صادق الرافعي.
- المعجزة الكبرى القرآن ـ الشيخ محمد أبو زهرة.
- مجلة الكشاف ـ مقال لعبدالله مخلص.

- ناظورة الحق في فرضية العشاء وإن لم يغب الشفق ـ شهاب الدين المرجاني .
- الفوائد المهمة ـ شهاب الدين المرجاني .
- تاريخ المصحف العثماني ـ الشيخ اسماعيل مخدوم .
- تاريخ القرآن ، الشيخ موسى جار الله روستوفدوني .
- السياحة فيما وراء النهر ـ الشيخ موسى جار الله روستوفدوني .
- عيون الاخبار ـ لابن قتيبة الدينوري .
- معجم البلدان ـ لياقوت الحموي الرومي .
- رحلة ابن بطوطة « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » .
- منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان ـ لمحمد أمين الخانجي .
- نهاية الأرب ـ لشهاب الدين النويري .
- صفحات من تاريخ الاسلام والمسلمين في بلاد السوفيات ـ الشيخ طه الولي .
- المستشرقون ـ نجيب العقيقي .